

سقوط حصان حسن المشاي

١ - المرأة

يكبر قرص الشمس في الافق ، ويسقط دمي تحت حواف البيوت الطينية الآيلة للسقوط بينما تظل كتل الدخان تتصاعد عابرة رؤوس النخل ، فتختلط بصبغة حمراء مفروشة على وجه السماء ، الوجه المقابل لبيت حسن المشاي . يهبط لون داكن ، هو خليط من الدخان ولون الشفق يفتش الارض الترابية المقابلة لبيت حسن المشاي ، ومن حين لآخر كانت ثمة اقدام حافية تعبر بسرعة نحو البيوت ، كانت الريح تحمل اصوات الرجال العاندين ، يتخللها سعال حاد ياتي الى الذني « زينة » زوجة حسن المشاي ، وهي جالسة تنتظر عند عتبة الباب . في كل مرة كانت تحلق في الاجساد التي تلفها الظلمة « يا زينة ، الذي باطراف الدنيا حملته الظلمة الى البيت وحسن المشاي لا ياتي ، لا ياتيك حسن المشاي » ، تعبر الاصوات اذنيها لتغيب في مساحات خالية بين النخيل والبيوت الطينية .

كانت كتل الدخان المتصاعدة فوق رؤوس النخيل والبيوت تأسر عينها وتشدها في امتدادات لا نهائية ، حيث تشكل الكتل اقواسا، وتتناثر ثانية على حواف الصرائف ، ويسقط بعضها في الارض الترابية ، تتابع « زينة » حركة الدخان الخفيفة ، وعندما تكور فوق الارض تتراعى لها ثمة اجسام متحركة ، ولو لم تكن زينة زوجة حسن المشاي لخدعتها تلك الاجسام ولظنت انها اشباح تخرج من مقبرة اليهود القريبة تماما من الارض الترابية ، شعرت زينة كما لو انها مخدرة تماما . ورغم انها طردت عن ذهنها كل تصورات النساء بما فيهن ام العيس جاريتها ، فلم تسنطع ان تسحب عينها من نقاط الدخان التي بدأت تقترب منها ، ثم تلاشى في مكان ما ، وتعود ثانية كما لو انها تريد ان تقترب اكثر فاكثرت ثم تلاشى ايضا ، بقيت زينة عند عتبة الدار . وكانت ترسم على مدى عينها جسد المشاي ، سوف يظهر من بين تلك الاجساد المتعبة ، ليملا عينها . لكن المشاي لم يات ، حدثت في الاجساد التي مرت في الظلمة وسمعت نباح كلاب متقطع ، ياتي من بعيد يفزو اذنيها ، يملأها بديب كائن ما ، كانت تعرف ان مقبرة اليهود لا يحيطها سياج ، انها مهجورة منذ زمن ، ولكنها الان تعرف قبور الموتى واحدا واحدا .. فقد عاشت قريبة منها . وكانت تمر عليها نهارا ، الرجال وحدهم يستطيعون ان يمروا من بين تلك القبور ليلا . لا بد ان يمر حسن المشاي على قبر « عيس » . روى لها المشاي قصة هذا اليهودي الذي كان غنيا وخالئا ايضا ، والذي ما زال قبره لئلا يظن بالمرمر الاسود « يا زينة الذي باطراف الدنيا حملته الظلمة الى البيت وحسن المشاي لا ياتي . لا ياتيك حسن المشاي » .

الظلام كان قد سقط في كل المسافات التي تحيط ببيت حسن المشاي وما زالت زينة تحدى في صورة المتوقع التي . سقطت نجمة من بعيد ، فهزت زينة يدها ثم قالت ! ان الشيطان قد مات وان الملائكة سوف تعرسك يا حسن المشاي ، جاء صوت من عمق الظلمة البعيدة ،

خمنت انه صوت جارها ابو العيس وكان ينادي على ابنه ليساعده في حمل الاكياس ، سمعت زينة الباب يتحرك ببطء وهو يصر صريحا مخيفا ثم انفرج قليلا ، ففسرت منه دفقة ضوء الفانوس ، تحلقت امام الباب دائرة من الضوء ، كان عباس يتحرك داخلها ، اخذت دائرة الضوء تتعد ، ثم عادت مرة اخرى لكنها كانت مفتتة ، عرفت زينة ان ابا العيس اصبح داخل الدائرة ايضا فقامت زينة ، تركت الباب مفتوحا اتجهت نحو الدائرة الضوئية . قال ابو العيس :

« هذه انت يا زينة ، ما بك ؟ »

« لم يات المشاي » قالت ذلك وبدأ صوتها حزينا .
« المشاي تركته في السوق » ثم نادى ابو العيس على زوجته ، وكأنه كان يعلم ان ام العيس تراقبه واقفة عند الباب ، اقتربت ام العيس بخطوات بطيئة وهي تجس الارض بحذر وخوف ، فسالت زينة لام العيس :

« يا خيتي ، لقد تأخر حسن .. »

وردت ام العيس بصوت ثقيل مبلل بالتعب اليومي (لقد كانت هي الاخرى تنتظر) :

« لا تخافي يا زينة ، سياني المشاي ، انه لا يتأخر ابدا » .

دفع عباس الفانوس قليلا كما لو كان يتعمد ذلك ، فالتفت عينها فجأة ببرق يتساقط من عيني زينة ، تاكد ان ذلك كان دعما تيسر على جفنيها ، كانت قامة ام العيس الملقوفة بالعباءة السوداء قد غطت جسد زينة ، قالت ام العيس لابنها :

« انزل الفانوس يا عباس » ثم التفتت الى زينة متممة كلامها
« لا تخافي يا خيتي » .

« انا لست خائفة عليه ، انما الحصان ، الحصان يا خيتي ، لقد كان البارحة مهروشا » .

دقت ام العيس على صدرها ، فعلت ذلك كما لو كانت في ماتم ، بينما تحرك ابو العيس وابنه عباس تجاه البيت ، طلبت ام العيس من زوجها ان يدبر عشاءه وحده ، لانها سوف تبقى مع زينة . عادت ام العيس مرة اخرى ودقت على صدرها مرتين ؟ ثم قالت :

« يا زينة ! يا خيتي ! كان مهروشا ، ماذا نجني من الخيول غير التعب ؟! » .

« اي والله ، ولم ينم حسن البارحة ، لقد ظل ساهرا على حصانه حتى الصباح » .

« قال ابو العيس ، انه سمع حصان المشاي يطخر ، اراد ابو العيس ان ياتيكم ولكنني منعتة يا خيتي ، قلت له ، يا رجل كل الخيول تطخر في الليل ، حتى حصان حسن المشاي » ..

جابت زينة الفانوس النقطي وكان قد امتلا باب حسن المشاي

بالضوء الخافت ، ومن بعيد كان رأس الحصان ورأس المشاي يتعانقان في الظلمة كعاشقين هائمين ، انتفض جسد زينة كان هاجسا اشعرها بحركة الحصان ، او كان رائحة الحصان كانت قد سبقت المشاي الى البيت ، ارتعش الفانوس بيد زينة وهي تدفعه ليكشف امامها مسارات في الظلمة ، قامت زينة ووقفت ام العيس بحدانها ، كان الجسدان يمتدان حتى قارضة الباب ، قالت زينة :

« انه حسن .. »

قالت ام العيس « الم اقل لك يا زينة ان المشاي لا يتأخر كثيرا ؟ »

ودون ان تترك زينة انها قد تركت جارتها ، اسرعت نحو المشاي ، كانت ام العيس قد تبعتها ، قالت زينة :

« ها يا حسن ، تأخرت .. »

قالت ام العيس : « لقد جاء يا امرأة ، قولي له سلامات » لم اردت قائلة « سلامات يا حسن » .

« يا ام العيس ، الحصان ، الحصان اتعني كثيرا » .

« به واشتر غيره ، غدا الجمعة ، وكما قال ابو العيس ، من يضمن لنا الخيول في هذه الايام ؟ انها تكلفنا كثيرا يا حسن المشاي » .

« صحيح . ولكن من يشتريه يا ام العيس وهو على هذه الحال ؟ »

لاحظت زينة انها لم تقل شيئا ، وان ام العيس قد غطت على لحظة الانتظار بحديثها الطويل ولكن لم يسرب الى قلبها شيء ما ، فهي تعرف طيبة ام العيس ، اما حسن المشاي فقد لاحظ برقا يشتعل في عيني الحصان كوقدة نار ، شعر ان حصانه كان يبكي « ان الحصان يا حسن المشاي لم يخذلك ، الخيول لا تخلل اصحابها يا حسن المشاي » قال متما كلاله :

« لا استطيع ، لا استطيع ان اراه بيد اللال يا ام العيس » . قرب الحصان رأسه الى رأس المشاي ، وكما لو كان يهمس في اذنيه شيئا ، هز المشاي رأسه مؤكدا رفضه « لا استطيع ان اراه بيد اللال يا ام العيس » . تحركا معا ، ودخلا البيت مبتعدين عن عالم الظلمة .

ربط المشاي حصانه ، وجاء بسطل الماء والجت . كان المشاي وحصانه في حوض الليل كهوجين يتصاعدان في بحر من الهم . ظل رأس الحصان منتصبا كانه كان يحدق في اللاشيء المترامي عبر ظلمة السطوح والبيوت والنخيل ، كانت زرقاة السماء تسقط في عينيه ، تكشف اسرار الزمن الاتي ، سحب المشاي تنكة سويت على شكل مقعد ، جلس امام الحصان وجها لوجه ، كان يتفرس في الوجه التعب الثقيل « انه وجه الزمن الطويل يا حسن المشاي ، الوجه الذي رأت عيناك العالم من خلل عينيه » .

جاءت زينة بالفانوس النفطي الخاص بالحصان ، علقته على عمود بجدار السوبات ، سقط ضوء الفانوس في عيني الحصان ، فلاحظت زينة ، ان الحصان كان يبكي ، وتيقنت انه كان يتصعب عرقا ايضا ففهمتها لحظة مبهمه ، لحظة امتلا قلبها بالخوف والعطف ، وتركت لعينها ان تلتقيا بعيني المشاي فرأته يتابع رأس الحصان الذي ظل منتصبا ، حاولت ان تخبره بمخاوفها ، لكنها ارتأت ان تترك المشاي وحده يكتشف عرق حصانه ، تراجمت وهي تحمل هما وجبا « يا زينة ، الذي باطراف النيا حملته الظلمة الى البيت وحسن المشاي لا يأتي ، لا يأتيك حسن المشاي » فشعرت انها بقيت وحيدة ، ارتفعت ان تبقى وحيدة من اجل حصان المشاي ، لقد احبت هي الاخرى هذا الحصان ، وكانت تخاف عليه من الموت في لحظات يكون المشاي فيها بامس الحاجة الى من يعينه « يا زينة ، الرجال لا يتركون الخيول تموت وحدها فالخيول كالتساء تمنح الحب والمطاء »

دلقت زينة الى صريفها ثم خرجت ، اقلت نظرة على المشاي وحصانه ثم صعدت فوق « السوبات » وبقيت تنتظر . كانت النجوم الصيفية تلتع في عينها وحسن المشاي لا يأتي .

٢ - حوارية الجوع والمرض :

قال حسن المشاي :

« اذا لم تأكل الجت ولم تشرب الماء ، سايبك غدا ، انت تعرف الساحة المقابلة لبيتنا ، غدا سيحضر عدد كبير من الخيول ، ستري بنفسك ، ايها الحصان ، كم هي مطيعة لاصحابها . ومع ذلك فسوف يبيعونها ويشترون غيرها ، سايبك غدا ، اذا لم تأكل الجت ولم تشرب الماء » .

قال الحصان !

« يا حسن المشاي ، انت صاحبي ، الا ترى انني لم اعصك خلال السنوات الخمس الماضية ، لكنه المرض يا حسن المشاي ، فاجاتي بفتة ، وانت ادري مني بالمرض . ان السنوات مرت ولم تمنحني شيئا . تستطيع ان تبعني ، لكنني لم اعد اسوي شيئا » ، قال حسن المشاي :

« لكي تغلب على مرضك ، لا بد لك ان تأكل ، اننا نفعل ذلك من اجل ان تقوي اجسادنا وتكون لدينا القوة على تحمل المرض ، كل شيئا . انك جائع ، انا اعرف انك جائع . لقد رفضت ان تأكل في السوق ، انت الان في البيت . فكل شيئا لكي ارتاح . الا تريدني ان ارتاح قليلا ؟ »

قال الحصان :

« يا حسن المشاي ، انت انسان طيب ولكنك لا تعرف مرضي ، لا فائدة من الاكل يا حسن المشاي ، انني احس باقتراب نهايتي ، لقد اصبحت كثيرا هذا اليوم ، انا اعرف ذلك واعرف انك لا تستطيع ان ترسلني الى الطبيب كما يفعل اصحاب خيول السباق ، ان تلك الخيول تدر على اصحابها الارباح الكثيرة ، وانا لم اعطك شيئا ، يا حسن المشاي ، غير رفقة السنوات الخمس الماضية ، .. لقد حملتك على ظهري في الصيف والشتاء ، ان ازقة المدينة ما زالت تحتفظ براحة عرقنا ، ارايت انسانا طيبا يبيع رفيقه في ظروف قاسية قاهرة ؟ ان الصديق يحمل هم صديقه ، الا تحمل همي يا حسن المشاي ، لقد كافحت معك سنوات القهر والموت ، آه . انني الان ، لا استطيع ان اواصل الطريق .. سنتل وحده يا حسن المشاي ،

قال حسن المشاي :

« ان معاناة الطبيب تكلف مالا كثيرا ، وسوالك انا لا املك شيئا ، على كل حال يبدو انك لا تريد ان تأكل . لا تمنعني اجبرك على فصل ذلك ، انت تعرف الجوع ، وانا جائع وتعب ايضا ، انها حياة قاسية جدا ، لقد تحملت معي ردحا منها ، فهل تريد ان تتركني وحدي ؟ لا ، لا تفعل ذلك ، انا لا اقوى على الحياة ، كل شيئا . سوف يمنحك الاكل قوة ، اننا نفعل ذلك من اجل ان يستمر هذا الجسد . كل شيئا اذا ، ان لم تأكل ، آه ايها الحصان ، لا اريد ان اهددك ايضا ، انت تعرف انني لا استطيع ان ارسلك الى الطبيب ، اذن لا بد ان اعمل شيئا ، بامكاني فقط ارسلك الى سوق الخيول ، .. لقد باع ابو العيس جارنا حصانه ، ان ابا العيس لا يحب حصانه كمثل حبي لك ، ومع ذلك فانا - يا حصاني العزيز ، لا استطيع ان ارسلك الى الطبيب . »

قال الحصان :

« دعني اذا يا حسن المشاي اموت في بيتك ، انني اشعر بانتماء قوي الى هذا البيت . المنتمون الى بيوتهم لا يموتون في الخارج يا حسن المشاي ، لا يموت المنتمون خارج بيوتهم » .

قال حسن المشاي :

« لقد انصبتني .. تبعت ، انا جائع ، سارى ما تركت لي زينة ، ساكل ، انا لا استطيع ان اتحمل الجوع مثلك .. يمكنك ان تموت الليلة من الجوع ، ولكن في القدر ساخذلك الى ساحة الخيل ، على كل حال فهذا الجت الاخضر يكفيك اذا ما حاولت ان تاكل ، وما هو الماء في السطل .. ساترك الان ... »

٣ - نهايات الليل الصيفي

لمح المشاي ضوء القمر يغسل وجه زينة ، وكانت البراءة نجمة تتللا بجانبه ، الليل اخذ ينهز في شعرها الاسود صورا تعبر خيالات المشاي نحو الزمن الذي كان دشعا ولما طرح جسده بجوارها شعر بدفء لذيذ يتسرب الى جسده « يا حسن المشاي الخيول كالنساء تمنح الحب والعتاء » اتسع الزمن داخل لحظات الصمت ، كان الليل صيفيا . علق عينيه في زرقة السماء ، وسمع الحصان يصعد زفرات حادة تخزق اذنيه . تحول الى انات متتالية ، تقرب ، يقرب ، الحصان ، المشاي يسقط متعبا في عمق الليل .. عيناه كانتا مثقلتين بدبيب ناعم ، يرى الحصان يصعد ، يقف عند راسه ، يفرش جناحين ابيضين « يا حسن المشاي الخيول لا تخلل اصحابها ، آه انني اقرب الى الضفة الاخرى ، لا استطيع ان اواصل الطريق معك ، ساترك انا ايضا » اندفع جسد الحصان مرتقيا زرقة السماء .. ضاعت نجمة الليل فجأة ، ثم انهزم ضوءها ساقطا في عيني المشاي ، فلم يحرك المشاي يده ، لم يقل شيئا ، كان فقط غارقا في الليل . والحصان ، كان يرتفع ويهبط كما لو كان يحوم فوق جسد المشاي . شعر بهزة عنيفة تدفعه في مائة خوف ، امتدت يد مجهولة الى جسده ، مرت على صدره باردة كالثلج ، اهتز جسده فتح عينيه ، كان جسد زينة طويلا ، منظرها بجانبه ، يسبح في حلم خاص وسري .

وكانت الشمس بدت كطائر ذبيح عند حواف البيوت الطينية ، تنزف دما « انه حلمك يا حسن المشاي .. الحصان يموت ! » اسرع هابطا السويطات ، وقف مباشرة امام حصانه ، الفاه منتصبا .. ومن وراء الجدار ، كان صوت ابي العيس يخترق القيش حادا كالون الفجر :

« يا حسن المشاي ، بهه اليوم . ان هذا الحصان لا ينفعك ، بهه والا ! »

« والا ، اذا يا ابا العيس ؟ »

« الا ترى انه يموت ببطء ؟ »

في الوقت الذي كانت فيه قطرات الندى تتعلق بسعف النخيل ، سمعت زينة وهي فوق السويطات ، الباب يصر ، رفعت راسها ، استطاعت عيناها ان تبصرا رأس المشاي ورأس الحصان يخترقان ضلقة الباب ، كانت تصمت الى ضوء الشمس وهو يندق الاشياء بانامل ناعمة ، لتصير كبيرة في عينيها بينما يخلف المشاي وحصانه دفة اللحظة الاخيرة امام الباب ، ظلت زينة مرة اخرى تنتظر .. في هذه اللحظة لم تفعل زينة شيئا سوى انها اخذت تراقب الشمس وهي تصعد فضاء الساحة المقابلة لبيت حسن المشاي .. ومن خلل ضوء الشمس الساقط في عينيها ، ابصرت نمة طيورآنية من بعيد وكانت قد حطت على سعف النخيل فتساقطت قطرات الندى وامتلا الصباح باجحة الطيور .

٤ - الساحة والموت

الى هنا تأتي الخيول .

ودن هنا ينجل العطنش في الارض السبخة والخيول .

وكذا المشاي لم يفعل شيئا سوى انه اخذ يطيل النظر الى

وجه الحصان ، وكان الحصان هو الاخر يحرق في البيوت الطينية ، وحينما اخترقا مقبرة اليهود ، صعد الحصان رأسه نحو بيت المشاي ، رأى المسافة تحط فيها القبرات ، وعندئذ اخذ الخوف يعكس من بين الاتار المتباعدة في قلبه شعاعا اصفر ساكنا ، وقد خيل اليه انه يسمع نداءات تترى من داخل المقبرة . كانت الشمس تسكب النور في عينيها ترك راسه يسقط ذليلا منقادا لحركة المشاي ، ومع ذلك فقد شعر بلذة الالم تندس في مكان ما .

« هذه الجمعة التي تحدث عنها ابو العيس ، وقال انه باع حصانه في يوم الجمعة » .

« وكان الناس يعرفون الجمعة من رائحة الخيل والرجال » .

« يا حسن المشاي ، هل تعرف انت يوم الجمعة ؟ سل حصانك اي يوم هو الجمعة ؟ »

« في السنوات الخمس الماضية لم يكن نمة يوم جمعة يا حسن المشاي » .

« ما كان ينبغي ان يكون هذا اليوم يا حسن المشاي » .

الى هنا كانت الخيول تاتي ومن بينها كان حصان المشاي ياتي ايضا .

يقف حسن المشاي بحصانه عند حافة الساحة ، وامامه كانت الرؤوس تمتد ، يلوح « اليشماغات » تلوح بها رياح هائلة ، كانت تمر على انفه عابقة برائحة سهيل الخيل . وكما لو كانت قوة خارقة تجذبه ، اندفع المشاي نحو عمق الساحة . اختلط بين الاجساد ، كان رأس الحصان منتصبا فسوق راسه ، كانت الرؤوس الاخرى ذات الاشكال الخيالية ، حمراء وبيضاء ، تحسوم فوق راسه ، ورأس الحصان ، فتمتلئ عيونهما بانعكاسات وبريق وسرعان ما تحول خوفهما الى واقع رهيب ، كانت الاصوات تتمطط في الهواء ، وصهيل الخيول يمتزج بحرارة الشمس . تقدم احد الدلائن غارسا عينيه الحادتين في لحم الحصان :

« بكم تباع الحصان ؟ »

« بخمسة واربعين دينارا . »

« حصانك مريض ، يعرق كثيرا ، فهو لا يساوي غير عشرة دنائير » .

اهتزت الارض تحت قدمي المشاي . وتمشتت في مفاصله رعدة ، كان الحصان قد نثر الحبل من يد المشاي ، وانفجرت الرؤوس ، تاركة فسحة لجسد الحصان ، اعلن الحصان راسا تمرده واحتجاجه ، وكما لو كان يريد ان يبرهن على قوته ، دار حول نفسه دورتين ، ثم علا صهيله في فضاء الساحة ، ودار دورتين اخريين وكانت الفسحة قد انفجرت اكثر ، فانطلق الحصان ، لم يفعل شيئا ، سوى انه وسع من دائرة تحركه . اصبح الان يحيط ظهور الرجال بدائرة غير مرئية ، ظلت العيون تتلقى غبار حوافره اختنق صوت المشاي داخل الدائرة ولكنه طفق يركض وراء حصانه . كانا يركضان .. كان الحصان يدور دورة كاملة ، لم يلحق المشاي به ، شعر ان نمة اجسادا اخرى ، تتبع الحصان ، تفحصها بنظرات سريعة ، كانت الخيول كلها تدور وكانت « اليشماغات » تتظاير في فضاء الساحة كما لو كانت اعلاما وبيارق قبيلة خرجت توا لتؤدي طقوس الموت ..

مر الحصان مسرعا على مقبرة اليهود ، كان قبر « عدس » وحده يعترق تحت الشمس ، لم توقفه التماعات المرمر الاسود ، عبر المقبرة متجها صوت بيت المشاي ، ما زالت زينة تنتظر .. ادركت انها لم تستطيع المرة الثانية ان تقوم بعمل ما ازاء الحصان ، فقط كانت تلحظ الحبل يتدلى من رقبة الحصان ، ظل جسد الحصان قريبا من البيت ، تماما تحت حواف عباءة زينة السوداء ، يزغي ويزيد .. وكانت الخيول تدور على امتدادات عينيها المحلقتين في جسد زينة المتجمد لصقه .